

ملامح الخطاب الصوفي في شعر الأمير عبد القادر
**The Aspects of Sufi Discourse in the Poetry of
Prince Abdul Quadir**

* عبد الوهاب عبوسي

ABDELWAHAB ABOUSSI

جامعة الجزائر 2، أبو القاسم يعد الله - الجزائر

University of Algiers 2, Abou El kacem Saadallah- Algeria

wahhab1989@gmail.com:

تاريخ النشر: 2020/12/25	تاريخ القبول: 2020/09/29	تاريخ الإرسال: 2020/04/16
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تتناول هذه الورقة البحثية ملامح الخطاب الصوفي في شعر الأمير عبد القادر، ممثلة في قضايا الفكر الصوفي ومحاوره الكبرى كوحدة الوجود والحقيقة المحمدية والحب الإلهي. وقد حاول البحث الوقوف على مظهرات الخطاب الصوفي في شعر الأمير عبد القادر من خلال ملامح ورموز عدة كالشك من أجل الوصول إلى الحقيقة والخمرة والمرأة والحقيقة المحمدية، إذ يشكل أغلبها أفكارا صوفية عرفانية اغترف الشاعر من معينها مقلدا تارة، أو متأثرا تارة أخرى بمن سبقه في مدارج أهل الكمال، باعتبارها معارج تؤدي إلى الإيمان والمحبة والمعرفة والتوحيد على اختلاف في طرقها وتباين في مناهج الوصول إلى الحقيقة المجردة. وما يهم من هذا كله أن شعر الأمير عبد القادر الصوفي يمثل جزء لا يستهان به من الشعر الصوفي الجزائري الحديث، وهو تجسيد واضح لأهم القضايا والأفكار الصوفية التي ترجمها الكثير شعر ذلك العصر.

الكلمات المفتاحية: خطاب - تصوف - شعر

Abstract :

This research paper deals with the manifestations of the aspects of Sufi discourse in the poetry of Prince Abdul Quadir, represented in the issues of Sufi thought and its major topics such as pantheism, Muhammadan truth and godly love...

* عبد الوهاب عبوسي : wahhab1989@gmail.com

EMIR Abdul Qadir poetry revealed issues of Sufi discourse throughout aspects and several symbols, for instance doubt to reach the truth, wine and woman .Etc... revelation of Sufi ideas implemented by the poet sometimes from the cradle imitating or influenced, at other times by processors in the path of perfection as ways leading to faith , love , knowledge , believe just in ALLAH Almighty though the difference of methodology that converge to the Abstract truth.

What matters of all this is that the Sufi poetry of the Prince represents a master piece of contemporary Algerian Sufi poetry illustrating Sufi dilemma and ideas that are interpreted at that era poetry.

Keywords: discourse-Sufism- poetry



أولاً: التصوف في الشعر الجزائري:

مما لا شك فيه أن الصوفية كان لهم وجود أدبي ملحوظ، ولا أدل على ذلك إلا ما عرف عنهم من ألفاظ وتعبير دونها المؤلفون، والتي مثلت ثروة لغوية لا يستهان بها، أضف إلى ذلك أن أغلب هذه المصطلحات والتعبير حملت معان وجدانية وروحية و نفسية واجتماعية ما جعلها وثيقة الصلة بالحياة الأدبية، وكان الصوفية يعرفون باسم القراء والزهاد والنسك، ولوحظ فيهم أنهم من أقطاب الأدب والبيان لذلك أورد الجاحظ شيئاً من كلامهم، فلهم كلمات تشوق القلب والوجدان¹.

وقد نزع الصوفية منذ ظهورهم إلى التعبير عن تجاربهم ومواجيدهم متخذين من الشعر وسيلة لهم، فالشعر عند الصوفية لم يكن فنا مقصودا لذاته، ولما كانت لغة الشعر موحية في تصويرها لتلك التجارب الروحية كان جل الصوفية، شعراء يجيدون الفنون الشعرية وأغراضها، ممتطين لغتهم الرمزية كخصوصية ميزت شعرهم، ولو دققنا النظر في مظاهر الشعر ومميزاته ولغته ونظرنا إلى مظاهر الصوفية وسلوكهم وتجاربهم الروحية والأدبية لوجدنا علاقات وطيدة وتداخلا بينهما.

وعلى غرار بقية الأقطار العربية الإسلامية عرفت أقطار المغرب العربي ظاهرة التصوف في الخمسية المحجرية الثانية بصورة جلية، وتجاوب رجالها وعلمائها وشعرائها مع هذا التيار الذي وصل إليهم بوساطة النزوحات ونسخ المخطوطات أو إرسالها إلى هذه الربوع أو إحضارها عن طريق قوافل التجارة التي كانت ترحل إلى المشرق العربي أو من خلال رحلاتهم إلى الديار المقدسة حاجين، وكل

هذا أتاح لهم الالتقاء بشيوخ أجلاء اتخذوا من التصوف مذهباً، ومن الشعر غالباً ترجماناً لمواجيدهم وأذكارهم.²

وبما أن الشعر الجزائري هو جزء من هذا التراث الصوفي العريض، فلا جرم أن له أعلاماً حملت لوائه، فقد "عج القرن السابع بأسماء جزائرية تعود أصلاً إلى بيئات ثقافية إبان هذه الفترة وما بعدها في كل من مليانة وبجاية وزواوة وتلمسان"³، نحو: أبي مدين شعيب التلمساني الشاعر المتصوف المشهور، وعبد الرحمان الثعالبي، والشعراني، وعبد الرحمان الملقب ببوقبرين، والسنوسي، ومن الشعراء البارزين عفيف الدين التلمساني، وغيرهم كثير.⁴

وقد ظهر المتصوفة في الجزائر قبل عصر الأتراك وأثناءه وبعده وألفوا في التصوف شعراً ونثراً، وتركوا تراثاً ضخماً من الأدب الصوفي إلى درجة يمكن معها القول بأن العالم الذي لم يؤلف في التصوف أو الشاعر الذي لم ينشد فيه قصائد فصيحة أو عامية لا يتمتع بحظوة لدى العلماء أو بين الناس⁵، وهو ما يبين أهمية التصوف بين الخاصة والعامة.

ويمكن القول كذلك أن التصوف كان الطابع العام للحياة الثقافية والأدبية في العصور الأخيرة في المغرب العربي عامة والجزائر خاصة، وانتشار التصوف في الجزائر مرده إلى كثرة الطرق والزوايا الصوفية إلى حد يصعب تعدادها، وما يهم هنا هو أن الشعر الصوفي الجزائري نشأ في ظل "الزاوية" وبين جدران "الطرق" واستوحى نماذجه من تراث السابقين عليه فهو تقليد لهم واحتذاء لأساليبهم وموضوعاتهم وأفكارهم.⁶

ثانياً: التصوف في الشعر الجزائري الحديث:

يقصد بالتصوف في الشعر الجزائري الحديث تلك القصائد التي اتجه فيها أصحابها للحديث عن القضايا التي عرفت في الفكر الصوفي بوجه عام، وفي الأدب والشعر بوجه خاص مثل "الغزل الإلهي" و"الخمرة الإلهية" و"وحدة الوجود" و"النور الرباني" وغيرها كثير، ويعد الأمير عبد القادر "أول شاعر جزائري حديث كتب في التصوف نثراً وشعراً وترك تراثاً ضخماً بالقياس إلى غيره من العلماء أو الشعراء في عصره أو ربما من جاء بعده على تفاوت بينهم قلة وكثرة"⁷، خاصة إذا علمنا أن الأمير عبد القادر قد سلك طريق المجاهدات الروحية⁸ أي تجربة التصوف العملية.

وعليه يرجح بعض الدراسين أن الأمير عبد القادر كان أديبا أول الأمر أما التصوف فكان آخر ما اتجه إليه⁹، لذلك يرى الركبي أن قصائده في التصوف كتبها في سنواته الأخيرة¹⁰؛ أي بعد أن استقر به المقام في دمشق ومال إلى الهدوء والاستقرار فاستغرق في التأمل ووجد في التصوف شعرا ونثرا ما يشبع نوازه الدينية، مما جعله في نهاية حياته شاعر التصوف بلا منازع¹¹.

ثالثا: التصوف في شعر الأمير عبد القادر:

من خلال الاطلاع على شعر الأمير عبد القادر في التصوف لا نجد يكاد يخرج عن القضايا الآنف الذكر ذلك أن روح التقليد بادية في شعره، وشعره الصوفي يتمحور في عدة قضايا أو دوائر أبرزها دائرة الشك، ودائرة الحمرة (الحب الإلهي) والمرأة (الحب الإلهي) ودائرة الألوهية (وحدة الوجود).

1- الشك: لا يعتبر الأمير عبد القادر الشك " طريقا للإلحاد وإنما هو طريق يهدف من ورائه إلى البحث عن الحقيقة الإلهية"¹²، فالشك عند الأمير هو الطريق إلى الله وحيرة توصله إلى حقيقة الإيمان بتحقيق الطمأنينة، وقد تأثر الأمير في شطحاته الصوفية واشعاره بالمعلم الأكبر ابن عربي الذي يرى أن "المتصوف شاعرا أو مفكرا، يبدأ من نقطة الشك لأنه الطريق إلى المعرفة"¹³ وهو في هذا يلتقي مع الفيلسوف لكن جوهر الاختلاف بينهما يكمن في الوسائل والسبل، فبينما يعتمد المتفلسف في برانه على استخدام العقل والمنطق، تجد المتصوف يتوسل المعرفة عن طريق الذوق إذ يهيم محبة وعشقا في محبوبه ليضمحل كيانه المادي في حضرة المحبوب حتى يتحقق له الكشف أو المعرفة.

وإذا كان الشاعر المتصوف يؤرقه الشك والحيرة، فإنه من الطبيعي أن يهاجم العقل لأنه يراه وحده سبب هذا التردد، أو الباعث لهذا الشك والحيرة، ذلك أن طريق العقل في المسائل الإيمانية طريق قاصر وقد يدفع المرء إلى متاهات وأوهام تخرجه عن جادة الصواب، فهو بالمختصر طريق لا يوصل إلى الإيمان الذي محله القلب، وذلك ما يستشف من قصيدته يا من غدا عابد لفكره التي يقول فيها:¹⁴

يا من غدا عابدا لفكره فقف فأنت يا غافلا على شفا جرف

جعلت عقلك هاديا ونورى هدى أضلك العقل، أيقن أنت في تلف

إلى أن يقول:

حكمت عقلك في الرب العظيم فما تنفك تحكم فيه حكم ذي سرف
تقول ليس كذا وليس هو كذا الحق في طرف وأنت في طرف
لذا فالعقل يضلل الانسان ويوهمه بأشياء هي أبعد ما تكون عن الله وأبعد ما تكون عن
معرفة الحق، لذلك فالشاعر يرى أن أسلم طريق للاهتداء إلى الحق تبارك وتعالى هي الشريعة فهي
الحجة القاطعة على وجود الله، ففي الكتاب والسنة ما يغني السائل عن طريق الوصول إلى الله
تعالى، وهو ما يدل على أن الشاعر هنا هو صوفي سني لذلك دعا إلى الشريعة بقوله:¹⁵
عليك بالشرع فالـزـم طريقتـه فحيثما سار سر، وإن يقف فقف
إن قال ليس كمثلي شيء قل هو ذا أو قال لي أعين، فقل هذا كلفي
كما أننا نجد الأمير عبد القادر يرى أن المعرفة تكون بالقلب وعن طريق الحب، يقول في
موضع آخر:¹⁶

تجلى له المحبوب من حيث لا يرى فأعجب به أراه من حيث لا يرى
وغيني به فغاب رقبينا وزال حجاب البين وانحسم المرأ
والمعرفة التي يشير إليها الأمير هنا لا يمكن أن تدرك بالعقل فهو قاصر عن إدراكها أو
تصورها.

وعليه فنظرة الشك كما عبر عنها الركيبي إنما هي أقرب للحيرة منها إلى الشك، ثم إن
اليقين هو العلم الحاصل بعد الشك، لكن هذه الأبيات تدل على حيرة نابعة من التحليلات
الحاصلة للشاعر المتصوف وهي "منازلة تتولى قلوب العارفين بين اليأس والطمع في الوصول إلى
مطلوبه ومقصوده، لا تظمعه في الوصول فيرتجوا، ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحوا، فعند ذلك
يتحiron"¹⁷.

2- **الخمرة (الحب الإلهي):** وظف الأمير عبد القادر رمز الخمرة في مواضع
كثيرة من قصائده الصوفية العرفانية التي كان يهيم فيها ولها وعشقا بذكر المحبوب، ومن ذلك قوله
في قصيدة تجلي المحبوب:¹⁸

وقد شرب الحلاج كأس مدامة فكان الذي قد كان منه مسطرا
وإني شربت الكأس والكأس بعده وكأسا وكأسا شيا ما أنا حاضرا
وما زال يسقيني وما زلت قائلًا له زدني ما ينفك قلبي مسعرا

وفي الحال حال السكر والحو والفنا وصلت إلى لا أين حقا ولا ورا
فالشاعر قد أشار الخمرة بالمفهوم الصوفي آتيا على ذكر الحلاج وما كان من أمره بعد
شرب المدامة، بينما الأمير يبين أنه يشرب منها الكأس تلوى الكأس ليزداد بها حبا وشغفا وقد لجأ
الأمير هنا إلى استخدام جملة من الألفاظ: شرب، مدامه، الكأس، يسقي، السكر، وهذا أسهم
بشكل لا يستهان به في إثراء دلالات المعاني العرفانية الفيضانية حيث نقلت الخطاب إلى عالم
الإيجابية، ليصل من كثر ما سقي منها إلى وصول الحقيقة أو كما عبر " وصلت إلى لا أين حقا
ولا ورا".

وفي قصيدة أستاذه الصوفي يسترسل الأمير في ذكر صفات هذه الخمرة وآثارها على مدار
حوالي 16 بيتا ومنها:¹⁹

ويشرب كأسا صرفة من مدامة فيا حبذا كأس ويا حبذا خمرة
معتقة من قبل كسرى مصونة وما ضمها دن ولا نالها عصر
إذا زمزم الحادي بذكر صفاتها وصرح ماكنى ونادى نأى الصبر
وقال اسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا وقل لي هي السر

والشاعر في هذه الأبيات - كما درج المتصوفة - رمز إلى ذوق الحبة المقتزنة بالمعرفة الأولى
بالمدامة والخمر، وهي المدامة التي خلقت قبل كسرى كناية عن قدمها بل وأكثر من ذلك لم يحوها
دن ولا أصابها عصر ليزيد بذلك إغراقا في الرمزية وتعاليا على الحس.

هي خمرة صرفة ترمز إلى الوصول والتلذذ بولوج الحضرة الإلهية، فهي حالة مشاهدة عرفانية
تعتمد في معظمها على الإدراك الخيالي للوجود، ونظرا لزدواج التجربة العرفانية والفنية عند الأمير
فإن هذا الخيال ليتحول إلى قوة رؤياوية مؤسسه للفعل المعرفي وما كانت الخمرة إلا رمزا لذلك
الفيض العرفاني الطافح.

3- المرأة (الحب الإلهي): تتشابه تجربة الحب الإنساني بتجربة الحب الصوفي
أو الحب الإلهي من أوجه كثيرة وأحيانا تصل حد التطابق، خاصة في غياب قرينة وظيفية بين
النصين، إذ تتميز التجريبتين بالعاطفة الفيضانية المشبوبة خاصة ما تشابه منهما بعشق العذريين رغم
التفاوت الحاصل بينهما في حرارة الوجد وصدقه.

فالمتصوفة يحاولون الخروج بالحب من الدائرة الأخلاقية وثنائية رجل/امرأة إلى فضاءات عرفانية متعالية (إنسان/ الله) وهو ما دفعهم لإضفاء مفاهيم وتصورات أعطت للكثير من الشعر الصوفي تميزه وفرادته.

ويعتبر رمز المرأة من بين أبرز الرموز التي تتكرر في شعر المتصوفة، التي اتخذوها معراجا لوصف شوقهم ووجدهم وهيامهم، لا بالمرأة هذا الكائن الجميل لذاتها، وإنما شوقهم وحبهم لله عز وجل فهذا الرمز يختلف من حيث التداول في العرفانية الصوفية على المتعارف عليه عند عامة الناس، "فالحق أن رمز المرأة في الشعر الصوفي، لم يبد لنا صفحته إلا على هدى من تصور صوفي عرفاني يدور على العلاقة بين الفعل والانفعال أو الفاعل والمنفعل وقد اعتبر الصوفية الجوهر الأثوي من أتم صور التجلي الإلهي وأكملها"²⁰، فإن اختلفت الأسماء التي عبروا بها عن حبهم فهي كلها محبوب واحد هو الله، يقول الأمير عبد القادر في هذا:²¹

يقولون لا تنظر سعاد ولا علوا وعد من الآثار واقصد لمن تهوى
فإنك مكلوم الفؤاد متيم أخو جنة بل منها دواؤك ذا أدوى
نظرت إليه والمليحة تحسبن نظرت إليها لا ومبسمه الأضوا

وفي مواضع يستبد الوله والعشق بالأمير ليصل حد الامتزاج الروحي بينه وبين محبوبه، فالحب أساس الفناء في الله والاتحاد به، وما استخدام رمز المرأة وجمالها الحسي إلا معراجا لمعرفة الجمال المطلق، يقول الأمير عبد القادر:²²

عجبي من عشق نفسي ما أحببت غيري أصلا
ليس تشبيبي غزلي وغرامي إلا إلا
أنا سعدى أنا سلمى أنا هنند أنا ليلي

وفي قصيدة "مسكين... لم يذق طعم الهوى" راح الشاعر يتغزل بمحبوبه في رمزية طافحة، وقد اكتحلت عيناه بطلعة الحبيب ذو الوجه الحسن الصبوح، مستعملا في ذلك اسم موصول مذكرا ليظهر أن ما يقصده هنا غزل صوفي، إذ يقول:²³

أوقات وصلكم عيد وأفراح يامن هم الروح لي والروح والراح
يا من إذا اكتحلت عيني بطلعتهم وحققت في محيا الحسن ترتاح
دبت حمياهم في كل جوهره عقل ونفس وأعضاء وأرواح

فما نظرت إلى شيء بدا أبدا إلا وأحباب قلبي دونه لاحوا
نظرت حسن الذي لا شيء يشبهه فما يروق لقلبي بعد ملاح
تجدر الإشارة قبل التعليق على هاته الأبيات إلى أن هذه القصيدة تتشابه إلى حد كبير مع
قصيدة السهروردي التي مطلعها:²⁴

أبدا تحن إليكم الأرواح ووصالك ربحانها والراح

فالمعاني تكاد تكون متطابقة أو هي متطابقة "حتى ليظن القارئ أن القصيدتين من نظم
شاعر واحد"²⁵ أضف إلى ذلك التشابه في حرف الروي، والأمير عبد القادر في هذه القصيدة
الترم بالحديث عن الحب الإلهي وعن جمال المحبوب ولوم العذال وألم ومعاناة الانتظار، والخوف
من دنو موعد الفراق وكل هذا يدور في فلك صوفي يعرف بالغزل الإلهي أو الحب الإلهي، ولكننا
نجد من جانب آخر يعالج في القصيدة الواحدة عدة قضايا، بيد أن هذا النوع من القصائد قليل
نسبيا وهو ما يميز شعر الأمير عبد القادر عن شعر غيره من شعراء التصوف الجزائريين.²⁶

وتحت عنصر الحب الإلهي يمكن الإشارة كذلك إلى فكرة الحقيقة الحمديّة وهي " فكرة
صوفية تربط بين الحقيقة الحمديّة وبين خلق الوجود... وهي نظرة كونية تجعل الرسول مدار الكون
ومحوره"²⁷ وعليه فنظرا لمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم وفضله على العالمين تجد الصوفية
يتوسلون به ربهم طلبا للشفاعة يقول الأمير عبد القادر:²⁸

يا سيدي يا رسول الله يا سيدي ويا رجائي ويا حصني ويا مددي
ويا ذخيرة فقري يا عيادي يا غوثي ويا عدتي للخطب والنكد
يا كهف ذي ويا حامي الذمار ويا شفيعنا في غد أرجوك يا سندي

وهنا يشير الأمير إلى تلك الحقيقة التوسلية التي تستجبر بالرسول صلى الله عليه وسلم،
وقد كان ذلك شائع في المغرب العربي قبل عصر الأمير خاصة في فترة الفتن والثورات²⁹، وفي هذا
المقام لا بد أن نشير إلى أحد أشهر الشعراء الذين استنجدوا بحقيقته صلى الله عليه وسلم وهو ما
نجد في قصيدة "البردة" للبوصيري فقد حظيت باهتمام بالغ إذ يقول فيها:³⁰

يا أكرم الرسل ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكرم تحلى باسم منتقم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن لومك علم اللوح والقلم

فيتجلى من خلال هذا أن حقيقته صلى الله عليه وسلم هي وسيلة، وواسطة يتوسلون به فيمجدونه ويقدمونه وكانت حقيقته سبيلهم لذلك.

4- وحدة الوجود: وتعد من بين أكبر القضايا والأفكار الصوفية إثارة للجدل وكان أول من قال بها ابن عربي، وهي "وحدة وجود مثالية أو روحية تقرر وجود حقيقة عليا هي الحق الظاهر في صور الموجودات، وترى وجود العالم بمثابة الظل لصاحب الظل، ولهذا يحرص ابن عربي على القول بأن الحق متنزه مشبه معاً، فتنزيهه في وحدته الذاتية، ومخالفته للحوادث، وتشبيهه في تجليه بصورها"³¹، يقول الأمير عبد القادر:³²

أيا أنا من أكون إن لم أكن أنت ويا أنت من تكون إن لم تكن أنا
ما بالكم قلمت عنه واعبد فكترتم لذاك طاشت قولنا
إذا رفعت من بيننا العين والألف فقد رفع الستر المفرق بيننا
وذلك حين لا أنا لك عابد ولا أنت معبود فزال حجابنا

وهنا في هذه الأبيات الأصل فيها الانتقال من القول برؤية الله في كل شيء إلى القول بأن كل شيء هو الله، والقول الأول شعر نابع من الحب والشوق، أما الثاني فهو فكر صادر عن الفلسفة، فهذه النظرية أثارها ابن العربي قديماً ورأيناها تشيع في قصائد الأمير عبد القادر، إذ يقول في آخر إحدى قصائده:³³

أنا الحب والمحجوب والحب جملة أنا العاشق المعشوق سرا وإعلانا

وهذه المعاني الفياضة تتكرر في أشعار الأمير عبد القادر خاصة في أجواء من المحبة الإلهية في إطار وحدة الوجود التي أشار إليها الأمير أكثر من مرة في مواقفه ويقول في أحدها "وجود إلا الوجود الواحد... الحق تعالى، والوجود الحق واحد لا يتعدد ولا يتغير ولا ينحصر ولا يجد ولا تقيد الأكوان والظاهر، ومظاهره متعددة متغيرة منحصرة مقيدة..."³⁴.

وعليه فإن الرؤية الفلسفية للوجود في الشعر الصوفي للأمير تتميز من خلال تصوره للوجود والعدم، وهو تصور يختلف عن تصور المتكلمين وتصور الفلاسفة. فهو يرى أن التمايز بين الحقيقة والمجاز تمايز صوري إلى درجة انعدام الغيرية تماماً بالنسبة للذات الإنسانية كما هو الوجود المحض³⁵، فالغيرية توجد فقط لفظاً ومجازاً.

بل نجد في ديوان الأمير قصيدة معنونة بـ"وحدة الوجود"، يقول فيها الأمير:³⁶

أنا حق أنا خلق أنا رب أنا عبد
أنا عرش أنا قرش وجحيم أنا خلد
أنا ماء أنا نار وهواء أنا صلد
أنا كرم أنا كيف أنا وجد أنا فقد
أنا ذات أنا وصف أنا قرب أنا بعد
كل كوني ذاك كوني أنا وحدي أنا فرد

ومن خلال هذه الأبيات لا بد من الإشارة إلى فكرة عميقة في مفهوم الوحدة عند الصوفية الذي ينقسم إلى قسمين، فأما الأولى فهي حال تجربة يكابدها المتصوف إلى درجة الفناء وهو ما يشار إليه بالفناء عند متصوفة الإسلام وقد ذكر أنفا، وأما الثانية فتمثل وحدة الحقيقة الوجودية³⁷ والوجود عند الصوفية واحد، حتى وإن تعددت مظاهره لذلك راح الأمير يسترسل في فكرته محاولا الوقوف على حقيقة أن من يسير هذا الكون واحد هو الرب، وهو الفاعل على وجه الحقيقة، وتلك هي الوحدة المقصودة³⁸.

الناظر في هذه الأبيات يجد التباسا بين عنوانها الذي أشار إليه المحقق بوحدة الوجود وكأنه تأكيد على مضمونها وذاك ظاهر بلا شك هذا أولا، ثانيا هذه الأفكار التي وردت في الأبيات أعلاه ألفت الشاعر ومعه المتلقي إلى دروب صعبة ومتاهات فلسفية خطيرة، دلت على إيمان الشاعر بفكرة وحدة الوجود.

وعليه فإن كانت فكرة وحدة الوجود تنبع من بين ثنايا دلالات هذه الأبيات، نجد الشاعر من جهة أخرى يقول: "واحذر أن ترميني بحلول أو اتحاد، أو امتزاج ونحو ذلك فإني بريء من جميع ذلك ومن كل ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله" ³⁹، وهذا ما يجعل المتلقي في حيرة بين ما تدل عليه أبيات القصيدة، وما يقوله الأمير عبد القادر من ناحية أخرى، لذا لا يجد أمامه إلا محاولة تلمس تأويلات أحر طالما أن للشعر وجوه.

بيد أن توظيف الأمير عبد القادر لجملة من التقابلات بصيغته الثنائية مثل (رب = عبد) في الأبيات السابقة تعد تأكيدا -بما لا يدع مجالاً للشك- على فلسفة وحدة الوجود، والتي من خصائصها الجمع بين المتضادين في زمن واحد دون أن ينفي الضد ضده وجوديا⁴⁰.

وبناء عليه يمكننا أن نستشف من خلال ما سبق أن وحدة الوجود عند الأمير تعني المركزية في القوة، والرجوع إلى مصدر القوة أو اتحاد القوى المادية في قوة واحدة وهو الحق سبحانه، لذلك فالأمير يروم لحظة التحلي الممثلة في هيئة أوصاف وأفعال لينفي من خلالها فكرة التعدد، لذلك نراه يقف بشكل ملح على فكرة الواحد من خلال تكرار ضمير المتكلم (أنا)، محاولا التأكيد على (الوحدة) من منظوره.

وعليه فهو يرى " أن عقيدة وحدة الوجود هي من بعض وجوهها ترتيب نسبي لعلاقة المخلوق مع الخالق - إذ يحسبها- أن العبد والمعبود ماهية واحدة من حيث الترابط النسبي والشرطي، ذلك أن الورقة ليست الشجرة، ولكنها جزء منها وليست زائدة عنها وثقافة التوحيد القلبي تنتهي بالسالك إلى الإيمان بالكلية، ذلك لأن العبد وفعله من خلق الله".⁴¹

ومما يمكن الإشارة إليه في معرض الحديث كذلك مسألة القصائد المتعددة القضايا عند الأمير عبد القادر مثل القصيدة المعنونة ب: "أستاذي الصوفي" والتي مطلعها:⁴²

أمسعود جاء السعد والخير واليسر وولت جيوش النحس ليس لها ذكر

فالشاعر أنشد هذه القصيدة في مدح شيخه محمد الفاسي المجاور بمكة المكرمة، وتعتبر هذه القصيدة من عيون قصائده الموثقة رواية ونسبة، حتى أن الدكتور محمد السيد يراها أجمل وأطول مدائحه وربما قصائده كلها⁴³، ومزج الشاعر في هذه القصيدة بين أغراض وقضايا عدة؛ إذ بدأ بوصف معاناته ثم وصف لقياه بشيخه وراح بمدحه ويسبل عليه من الخصال والصفات كل جليل، ثم طفق في وصف خمرة الصوفية المعنوية ثم حال شاربيها...

لذلك كثيرا ما تختلط الموضوعات (الموضوعات الصوفية) في القصيدة الواحدة عند المتصوفة وقد نجد بها صلة ولكنها ليست قوية بالدرجة التي تجعل من القصيدة وحدة كاملة، ولعل الشاعر - كما يرى الركيبي - يغيب عن وعيه فلا يرى فارقا بين الحب الإلهي أو حب الرسول P أو حب الشيخ؛ لأن حب الله غاية المتصوف وحب رسوله اعتراف بفضله، أما حب الشيخ فهو حب قاده إلى الطريق وعلمه من علوم المتصوفة ما فتح له درب السالكين إلى الله.⁴⁴

وعليه قد نجد الشاعر يبدأ بالحديث عن شيخه مشيدا بخصاله ويثني بالخمرة الإلهية ويثالث بوصف حال شاربها ووصف نعيمها ومعارفها وعلومها كما في القصيدة السالفة الذكر، لنجد أن الصلة الظاهرة التي تجمع بين هذه القضايا هي انضواؤها تحت قضية المحبة التي وقف

عندها المتصوفة كثيرا، لكن ما خفي من هذه الصلة أن أغلب هاته القضايا تشترك في كونها طرق للوصول إلى الله.

خاتمة:

ما يمكن الخلوص إليه من خلال كل ما سلف أن شعر الأمير عبد القادر الصوفي وغزله الإلهي وشكته وحيرته وحلوله واتحاده قد اندفع إليه مقلدا تارة ومتأثرا تارة أخرى بمن سبقه من القوم مقتفيا أثرهم، وما يدل على ذلك سيرته وجهاده، وتمسكه بالكتاب والسنة المطهرة في مواضع كثيرة.

ومهما يكن من أمر فإن تجليات قضايا الفكر الصوفي في شعر الأمير عبد القادر إنما كان يعترف من معيها باعتبارها تؤدي إلى الإيمان والمحبة والمعرفة والتوحيد على اختلاف في طرقها وتباين في مناهج الوصول إلى الحقيقة المجردة، حقيقة معرفة العبد لخالقه والإذعان بالطاعة والخنوع والإقرار بالوحدانية والربوبية، ودليلنا على ذلك ما تركه من قصائد صوفية، عبر فيها عن عميق إيمانه بالمولى تبارك وتعالى والرضا بالقضاء خيره وشره.

وما يهم من هذا كله أن الأمير عبد القادر استطاع أن يوظف جزء من شعره خدمة لما يؤمن به من قضايا الفكر الصوفي ويبين من خلاله مدى تأثره بشعر القوم عرفانا واصطلاحا، لذلك يمكن القول إن شعر الأمير عبد القادر الصوفي يمثل جزء لا يستهان به من الشعر الصوفي الجزائري الحديث، وهو تجسيد واضح لأهم القضايا والأفكار الصوفية التي ترجمها شعر ذلك العصر.

هوامش:

¹ - زكي المبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، ج1، (د، ط)، (د، س)، ص 67.

² - محمد مرتاض، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي في الخمسة المجرية الثانية، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، (د، ط)، 2009، ص 8-9

³ - محمد مرتاض، المرجع نفسه، ص 15.

⁴ - عبد الله الركبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 1981، ص 243.

- 5 - عبد الله الركيبي، المرجع نفسه، ص 242
- 6 - المرجع نفسه، ص 243.
- 7 - عبد الله الركيبي، المرجع نفسه، ص 239.
- 88 - ينظر: برنو إتين، الأمير عبد القادر الجزائري، تر: ميشيل خوري، دار عطية للنشر، بيروت، ط 1، 1997، ص 12.
- 9 - عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت، (د، ط)، 2000، ص 154.
- 10 - عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ج2، مرجع سابق، ص 246.
- 11 - عبد الله الركيبي، المرجع نفسه، ج2، ص 246.
- 12 - المرجع نفسه، ص 248
- 13 - عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ج2، مرجع سابق، ص 247.
- 14 - الأمير عبد القادر، الديوان، تح: العربي دحو، مؤسسة جائزة بن عبد العزيز سعود البابطين، الكويت، 2000، ص 181، 182.
- 15 - الأمير عبد القادر، الديوان، المرجع نفسه، ص 182.
- 16 - الأمير عبد القادر، المرجع نفسه، ص 169.
- 17 - محمد بن عبد الكريم الكسنزان الحسيني، موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، دار الحجة، دمشق، سوريا، 2005، ج6، ص 167.
- 18 - الأمير عبد القادر، الديوان، مرجع سابق، ص 171.
- 19 - الأمير عبد القادر، المرجع نفسه، ص 146.
- 20 - عاطف جودت نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس - دار الكندي، ط1، 2003، بيروت²⁰ لبنان، ص 09.
- 21 - الأمير عبد القادر، المرجع نفسه، ص 188.
- 22 - المرجع نفسه، ص 185.
- 23 - المرجع نفسه، ص 152.
- 24 - مجدي كامل، أحلى قصائد الصوفية، دار الكتاب العربي، دمشق سوريا، ط1، 1997، ص 20.
- 25 - عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر وأدبه، مرجع سابق، ص 170.
- 26 - عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ج2، مرجع سابق، ص 248.
- 27 - عبد الله الركيبي، المرجع نفسه، ص 63.
- 28 - الأمير عبد القادر، الديوان، مرجع سابق، ص 107.

- ²⁹ - ينظر، أبو عبد الله محمد بن عياض، التعريف بالقاضي عياض، تح: محمد بن شريفة، وزارة الأوقاف المغربية، المغرب، 1982، ص 11.
- شرف الدين البوصيري، الديوان، شرح وتقديم: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1938³⁰، ص 184.
- ³¹ - محمد مصطفى هدار، النزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث، مجلة فصول، مصر، المجلد 1، العدد 4، 1981، ص 107.
- ³² - الأمير عبد القادر، الديوان، مرجع سابق، ص 188.
- ³³ - الأمير عبد القادر، المرجع نفسه، ص 157.
- ³⁴ - الأمير عبد القادر، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، تح: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 2004، ص 34.
- ³⁵ - الأمير عبد القادر، المواقف، المرجع نفسه، ص 118.
- ³⁶ - الأمير عبد القادر، الديوان، مرجع سابق، ص 159.
- ³⁷ - عاطف جودت نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، مرجع سابق، ص 314، 315.
- ³⁸ - عاطف جودت نصر، المرجع نفسه، ص 141.
- ³⁹ - الأمير عبد القادر، المواقف، مرجع سابق، ج2، ص 88.
- ⁴⁰ - ينظر: حسن السمان، التماثل والخطاب الصوفي نظرية كونية البنية شمولية الوعي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011، 395.
- ⁴¹ - عشراقي سليمان، الأمير عبد القادر الشاعر (مدخل إلى تحليل الخطاب الشعري في محطة الما بعد)، أطفالنا للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011، ص 271.
- ⁴² - الأمير عبد القادر، الديوان، مرجع سابق، ص 138.
- ⁴³ - عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر وأدبه، مرجع سابق، ص 157.
- ⁴⁴ - عبد الله الركبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ج2، مرجع سابق، ص 283.